الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف الانبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

قال اللّه تعالى:

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8)

سورة مريم

شرح الكلمات:

{قَالَ رَبِّ إِنَّي} كيف {وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا} عقيماً لا تلد {وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا} من عتا: إذا يبس. أي بلغت نهاية السن. قيل: كان عمره وقتذاك مائة وعشرين سنة.

الشرح الاجمالي :

لما سمع زكريا عليه السلام البشارة من ربه، واطمأن إلى حصولها أغراه ذلك في أنْ يُوغل في معرفة الوسيلة، وكيف سيتم ذلك، وتتحقق هذه البشارة حالَ كوْنه قد بلغ من الكبر عتياً وامرأته عاقر؟

لكن ماذا يقصد زكريا من سؤاله، وهو يعلم تماماً أن الله تعالى عالم بحاله وحال زوجه؟ الواقع أن زكريا عليه السلام لا يستنكر حدوث هذه البشرى، ولا يستدرك على الله، وحاشاه أنْ يقصد ذلك، وإنما أطمعته البُشْرى في أنْ يعرف الكيفية فقوله: {أنى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ} ؟ سؤال عن الكيفية. {وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً}.

والعَتِيّ: هو القوي الذي لا يُغالب؛ لذلك وصف الكِبَر الذي هو رمز للضعف بأنه عَتِيّ؛

لأن ضعف الشيب والشيخوخة ضَعْف لا يقدر أحد على مقاومته، أو دفعه أبداً ويبدو أن مسألة الولد هذه كانت تشغل زكريا عليه السلام؛ وتُلِح عليه؛ لأنه دعا الله كثيراً أنْ يرزقه الولد، ففي موضع آخر يقول: {رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين} [الأنبياء: 89] . فزكريا عليه السلام يريد الولد الذي يَرِثه وهو موروث؛ لأن الله تعالى خير الوارثين.

وخلاصة ذلك– إنه يستثبت ربه الخبر عن الوجه الذي يكون من قبله الولد الذي بشره به، لا إنكار منه لذلك وكيف يكون منه الإنكار لذلك وهو المبتدئ مسألة ربه به بقوله: فهب لي من لدنك وليا.

وقوله: {قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا } أي من أي وجه وجهة يأتيني الولد أمن إمرأة غير امرأتي، أم منها ولكن تهبني قوة على مباضعتها وتجعل رحمها قادرة على العلوق، لأني كما تعلم يا ربي قد بلغت من الكبر حداً يبس فيه عظمي ومفاصلي وهو العتي كما أن امرأتي عاقر لا يولد لها.

وذكر جواب زكريا عند هذه البشرى مظهرا التعجب مما سمع:

(قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا؟) أي ومن أي وجه يكون لي ذلك وامرأتي عاقر لا تحبل، وقد ضعفت من الكبر عن مباضعة النساء، أبأن تقوّيني على ما ضعفت عنه من ذلك، وتجعل زوجي.

وإجمال المعنى– إنه تعجب حين أجيب إلي ما سأل وبشّر بالولد، وفرح فرحا شديدا وسأل عن الوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأته عاقر لم تلد من أول عمرها، والآن قد كبرت وهو قد كبر وعتا: أي يبس عظمه ونحل ولم يبق له قدرة على قربان النساء، وكأنّه يقول: إني حين كنت شابا وكهلا لم أرزق الولد لاختلال أحد السببين وهو عقم المرأة، أفحين اختل السببان أرزقه؟ فحينئذ لما جاءته البشارة بهذا المولود الذي طلبه استغرب وتعجب وقال: {رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ}

والحال أن المانع من وجود الولد، موجود بي وبزوجتي؟ وكأنه وقت دعائه، لم يستحضر هذا المانع لقوة الوارد في قلبه، وشدة الحرص العظيم على الولد، وفي هذه الحال، حين قبلت دعوته، تعجب من ذلك، فأجابه الله بقوله: {كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ}.

الضعف البشري :

المخلوق ضعيف.. ضعيف مهما علا شأنه ، ورسخ إيمانه . ولو كان نبياً إلا من عصمه الله تعالى. إنما هي هَنات تدل على بشريتهم . لكنه يظلون مثال الكمال الإنساني ومما يدل على ذلك في قصة سيدنا زكريا ما يلي :

أولاً : أنه ذكر ضعفه وهرمه ، وعرف أن زوجته لا تنجب لسببين اثنين أحدهما شيخوختها ، وثانيهما عقمها . ومع ذلك فأمله بالله أن يرزقهما ولداً صالحاً كبير. .. فلما أجاب الله سؤله تعجب من ذلك .

ثانياً : انه حين سأل الله تعالى الولد قدّم شيخوخته على عقم زوجته . وكأنه السبب الأول في عدم الإنجاب . فلما تعجب من البشرى نأى بنفسه أن يكون السبب الأول لعدم الإنجاب ، فقدم زوجته عليه . وهنا نلحظ الرغبة في الكمال وتفضيل النفس على الآخرين… . ولعله تعجب أن تلد امرأة عقيم بلغت سن الشيخوخة ، فنبهه المولى سبحانه أنه على كل شيء قدير ، فقد خلقه من العدم .

«ما المراد باستفهام زكريا– عليه السلام– مع علمه بقدرة الله– تعالى– على كل شيء؟

فالجواب أن استفهامه إنما هو على سبيل الاستعلام والاستخبار، لأنه لم يكن يعلم أن الله– تعالى– سيرزقه بيحيى عن طريق زوجته العاقر، أو عن طريق الزواج بامرأة أخرى، فاستفهم عن الحقيقة ليعرفها.

ويصح أن يكون المقصود بالاستفهام التعجب والسرور بهذا الأمر العجيب حيث رزقه الله الولد مع تقدم سنه وسن زوجته.

ويجوز أن يكون المقصود بالاستفهام الاستبعاد لما جرت به العادة من أن يأتى الغلام مع تقدم سنه وسن زوجته. وليس المقصود به استحالة ذلك على قدرة الله– تعالى– لأنه– سبحانه– لا يعجزه شيء.

أنَّ الشَّيخ الكبير والمرأة العقيم لا يمكن أن يُنجبا ذُرِّيَّةً، فإذا وقع ذلك منهما استغربا وأصبح الاستعظامُ لقدرة الله تعالى حاضراً في نفسيهما بعد أن كان مركوزاً، وذلك ما يدعوهما للتَّعبير عن الاستعظام المشوب بالاستغراب رُغم أنَّهما كانا مذعنان بالقدرة الإلهية على ذلك إلا أنَّ طبيعة النفس الإنسانية هي الانسياق مع هذا الشُّعور والتَّعبير عنه بمجرَّد حصول الأمر الغريب.

الفوائد:

1– أخبر الله تعالى زكريا انه أجاب دعاءه وتولى تسمية الولد بنفسِه، ونادى: زكريا، إنا نبشّرك بهبتِنا لك غلاماً اسمُه يحيى، ولم نسمِّ به احداً من قبله. فَسُرَّ زكريا بهذه البشرى وقال متعجباً: يا ربّ، كيف يكون لي ولدٌ وزوجتي عاقر وأنا قد ضعفتُ من الكِبَرِ وبلغت سن الشيخوخة!
.{قَالَ كذلك قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ. . . .} .

2– طلب معرفة السبب الذي يتأتى به الفعل غير قادح في صاحبه فسؤال زكريا عن الوجه الذي يأتي به الولد، كسؤال إبراهيم عن كيفية إحياء الموتى.

3– الاستفهام ليس للاستنكار؛ فكيف يستنكر نبي قدرة اللَّه تعالى على الأشياء من غير وسائط وأسباب، وهو خالق الوسائط والأسباب، وإنما كان هذا السؤال للتنبيه إلى موضع الغرابة، وليؤمن من لم يكن آمن بقدرة اللَّه تعالى، وأنه لا يحتاج في خلقه إلى وسائط وليسمع الناس بيان اللَّه تعالى أنه هين عليه، وأنه ليس بغريب من اللَّه تعالى، فقد خلق الإنسان ولم يك شيئا، وأن اللَّه تعالى غني عن الوسائط والأسباب.

4– معنى كلمة (عتي) واشتقاقها: " أي بلغت عتيا وهو اليبس والجساوة في المفاصل والعظام كالعود القاحل، ويقال: عتا العود من أجل الكبر والطعن في السن العالية، أو بلغت من مدارج الكبر ومراتبه ما يسمى عتيا "

5– يستشعر الانسان عظمة الله تبارك وتعالى من خلال التفكر في آياته فيكفي الانسان حتى يعرف عظمة الله عز وجل أن يتفكر في كيفية خلقه التي كان الله عز وجل قد وصفها في كتابه العزيز فخلق الله للإنسان من تراب قبل أن يكون لا شيء.

6– عندما يتفكر الانسان في كيفية خلقه من قبل الله عز وجل يستشعر عظمة الخالق تبارك وتعالى وذلك أن الله عز وجل قد أعد الانسان وجعله يمر في مراحل عديدة كل مرحلة لها فترة محددة حتى اذا تمت هذه الفترات وهذه المراحل أخرجه الله عز وجل ليصبح طفلا ثم يكمل بعد ذلك حياته الى أن يتوفاه الله تبارك وتعالى ويبعثه من جديد يوم البعث .

7– من اعتقد أن الولد من عطاء غير الله ، أو أن أحدا سوى الله يزيد في الرزق وينقص منه ، فهو مشرك شركا أشد من شرك العرب وغيرهم في الجاهلية.

8– زكريا قد شرح أسباب دعائه، وعرَضَ ضعفه على القويّ؛ فهو واهِنُ العظم، أشيب الرأس، يخاف الموالي، وامرأته – فوق كلِّ ذلك – عاقرٌ لا تُنجب، وهو يَطلب الولد! إنَّ أيَّ شخصٍ غيرِ واثق بالله لو يعلم أنَّ شيخًا كبيرًا لا ينجب، وامرأته عاقرٌ، وقد علاه المَشيب، يدعو اللهَ الولدَ – سيقول إذْ ذاك: لقد جنَّ الشيخ وربِّ الكعبة! ويحدث أن يستهزئ به، أو يسخر منه، ونسي المسكين أنَّ الله لا يعجزه شيءٌ.

9– أن يُحْسِن العبد ظنَّه بالله حتى في أصعب المواقف، فزكريا حالته – كما يقولون – مستعصية أو مستحيلة! ولكنَّ الله تعالى مَن بيده مفاتحُ كلِّ شيء إذا أراد شيئًا حدثَ لتوّه؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: 82]، وليس على الله بعزيزٍ أن يَستجيب دعاء عبدِه إن علم فيه الصِّدق، وحسن اليقين به، حتَّى ولو كان في عُرف الناس من المستحيلات؛ لأنَّك إن استشعرتَ بأنَّك تدعو عظيمًا قادرًا؛ فإنَّه سيستجيب لك، حتَّى ولو كان القدَر يجرى على خلاف ذلك؛ فقد قال الرسول الكريم – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((ولا يرد القدرَ إلا الدعاء))

10– استجاب الله تعالى دعاء زكريا وفق ما يتمنّاه، وقد بشَّره ببشارات كثيرة:1 – ستُنْجِب امرأتُه.2 – تنجب غلامًا، والغلام هو الشابُّ الطارُّ الشارب، أو الكهل، فهذا يعني أنَّه سيعيش إنسانًا طبيعيًّا دون أن يكون للسنِّ الكبيرة والشيخوخة أيُّ أثر سلبي في ذلك؛ فبشارته بغلامٍ من باب اعتبار ما سيكون؛ تيمُّنًا بسلامته، ويدلِّل على ذلك اسمه "يحيَى" الذي لم يكن أحدٌ ليتسمَّى به قبله.3 – سيكون الغلام واثقًا من نفسه، مُحاطاً برعاية الله تعالى له، داخلاً تحت كنفه ورعايته.4 – سيكون حكيمًا وهو صبيٌّ.
5 – سيكون رحمة للناس، عطوفًا عليهم.6 – سيكون تقيًّا مُطيعًا، مُزْوَرًّا عن الذنوب والمعاصي والآثام، مطهَّرًا منها.7 – سيكون بارًّا بوالديه، كثير الإحسان إليهما، غيرَ عاصٍ ولا متجبِّر عليهما، ولا مخالفٍ لأمر ربِّه.
8 – سيكون زاهدًا متعففًا لا يقرب النساء.9 – سيكون نبيًّا صالحًا.

والله اعلم .....وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا





تهدى ولا تباع

ولا تنسونا من صالح دعائكم

أعدّها عزمي إبراهيم عزيز